التعليم والثقافة في عهد الشيخ جاسم بن محمد بن ثاني

دكتور
يوسف إبراهيم العبد الله
جامعـة قطـر

ليس من الإنصاف أن نحكم على مرحلة تاريخية من تاريخنا بمقاييس زماننا الذي نحياه، والذي بلغ وطننا فيه درجة كبيرة من التقدم والتطور في شتى المجالات، وعلى رأسها مجال التعليم والثقافة فكل مرحلة من التاريخ لها ظروفها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، بل والبيئية، بما تفرضه من نمط معين من النشاط والتفكير والسلوك وما ينتج عن ذلك من ثقافة خاصة و نوع معين من التعليم المحدود، لذلك نرى من اللازم أن نستعيد ملامح الظروف التي مرت بها قطر منذ بروزها ككيان سياسي مستقل تحت حكم الشيخ محمد بن ثاني وولده جاسم منذ عام ١٨٦٨م.

ولعلنا نقصد بذلك أيضا ظروف المنطقة كلها، منطقة الجزيرة العربية والخليج العربي على وجه العموم حين كانت الأوضاع الاقتصادية بسيطة يكافح فيها الناس للحصول على أرزاقهم كفاحاً مريراً وتتميز مجتمعاتهم بطابع بدوي بسيط بشكل عام يجاهد أبناؤها في البوادي والسواحل لحفظ حياتهم سواء بالرعي أو برحلات الغوص الموسمية المرهقة، و تتكالب للسيطره عليهم قوي مهيمنة على رأسها بريطانيا العظمى والدولة العثمانية، فضلاً عن صراعاتهم القبلية التي كانت تحول بينهم وبين الاستقرار الطبيعي الذي ينتج الحضارة والثقافة... بيئة طبيعية قاسية وغير مواتية وصراع مستمر من أجل الحياه وقوى خارجية تستهدف السيطرة على المنطقة وقوى محلية وإقليمية تتصارع داخلها تصرفها عن استقبال أشعة الحضارة التي تنطلق من مناطق اخرى من العالم العربي.

ومن المهم التأكيد على ارتباط الثقافة بالتعليم ارتباطاً وثيقاً، وإن كان معناها يتسع ليشمل مفاهيم عديدة ترتبط بالحياة المعاشة وبطرائق التفكير والمعتقدات والتراث والسلوك، وإن كنا هنا نكتفي بالحديث عن الحياه الثقافية العامة وما يرتبط بها من علوم وآداب وتراث وفنون ونحو ذلك.

والمعروف أن أهالي قطر جميعاً كانوا يدينون بالاسلام على المذهب السني مع وجود أقلية شيعية، كما أن غالبيتهم تتمسك بالفقه المالكي، وإن كان الفقه الحنبلي هو الرسمي لاعتناق شيوخهم له. والنظام القضائي يسير وفقاً لاحكام الشريعة الاسلامية في المحاكم جميعا، التي كانت شرعية، باستثناء محاكم منازعات الغوص والتي كانت تسمى "محاكم السالفة"، أما القضايا المتعلقة بالمنازعات التجارية فكانت لها مجلس خاص بها، وكان أول قاض عرفته قطر في عهد الشيخ جاسم بن محمد هو الشيخ عبد الرحمن الدرهم الذي كان

كبير القضاة، وقد أعقبه في هذا المنصب الشيخ محمد بن مانع وكان شيخ قطر يعين أمراء لممارسة القضاء في مختلف نواحي قطر، فضلا عن القيام بأمور العبادات و إمامة الناس في المساجد... و عادة ما كان القضاة يمارسون تدريس العلوم الدينية من فقه وتوحيد وأحاديث، فضلا عن اللغة العربية في النصف الأول من اليوم ويمارسون القضاء غالباً في المساجد بعد صلاة العصر... وعموماً كان القضاة يمارسون التعليم والإفتاء و إمامة الناس في الصلاة، وكان القضاء في عهد الشيخ جاسم يستمد أصوله من الشريعة الإسلامية في قضايا الأحوال الشخصية والأخلاقية، كما يستمدها الأعراف والتقاليد القبلية في المسائل غير الشرعية، فلم تكن هناك قوانين مكتوبة كما كانت الأحكام تصدر شفاهة.[١]

وإذا عدنا بالذاكرة الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وهي الفترة التي حكم فيها الشيخ جاسم قطر(١٨٧٨- ١٩١٣)، أوبالتحديد منذ ميلاد الإمارة القطرية في الخليج، وخلوصها لحكم أبنائها وقبائلها تحت قيادة والده الشيخ محمد بن ثاني، سنجد أن قطر كانت تمر بحالة من الركود الفكري والثقافي، بعد أن ألقت الأحوال السياسية القطرية والظروف الاقتصادية العسيرة بظلالها على الحياة الاجتماعية والأدبية، وانعكست الصراعات السياسية مع جيرانها وعدم الاستقرار، على الواقع الثقافي، فأفضت إلى ضموره وضعفه وتأخره بالإضافة إلى أسباب أخرى أثرت سلباً على الواقع وأهمها تخلف مسيرة التعليم وعدم انتشار مؤسساته التقليدية، فشاعت الأمية والجهل مما أعاق عجلة التطور فضلا عن قلة عدد السكان وعدم استقرارهم، وتشير المصادر التاريخية لتلك المرحلة وكذلك الدراسات الحديثة إلى أن حركة التعليم كانت ضعيفة وأن فرصه اقتصرت على أبناء الشيوخ والموسرين من أهالي الدوحة وبعض المدن الصغيرة، وكانت طرائق التعليم ووسائله بسيطة يقوم بها بعض "المطوعين" القادمين من نجد وغيرها، ممن كانوا يعلمون الناشئة مبادئ القراءة والكتابة وحفظ بعض أجزاء القرآن الكريم، ومعرفة شيء من التوحيد والفقه ولم يكن متاحاً للطلبة الجادين أن يتعمقوا في مباحث علوم الشريعة واللغة والأدب إلا اعتماداً على أنفسهم أو الإرتحال إلى بعض البلدان المجاورة[٢].

لقد عانت قطر ومعظم إمارات الخليج العربي من الصراع الإنجليزي العثماني لفرض هيمنة الدولتين عليها ولم يكن للبلاد نصيب من سياسة بريطانيا تجاه التعليم، حتى تلك التي كانت تستهدف تعليم نخبة للعمل كموظفين لخدمة الادارة البريطانية واحتياجاتها الاستعمارية،

فلم تطبق هذه السياسة في بلدان الخليج العربي خلال فترة ما قبل ظهور النفط، لم يكن يهمها سوى تأمين مصالحها وطرق تجارتها عبر مياه الخليج، أما الدولة العثمانية فإنها عندما أرسلت حملتها العسكرية إلى الأحساء عام ١٨٧١ ومنها أرسلت فرقة عثمانية استقرت في ميناء الدوحة، لم يكن يهمها آنذاك سوى تحصيل الجمارك والضرائب ولم يكن يعنيها تعليم الأهالي أو تحصينهم ضد الجهل فلم تُعر التعليم أياً كان نوعه أي جهد يذكر، وأكملت بريطانيا الشوط فلم تفتح مدرسة واحدة على أي مستوى خلال الفترة التي انفردت فيها بالنفوذ في قطر قبل ظهور النفط، بل ولم تستقدم معلماً واحداً من أي بلد آخر ليقوم بهذه المهمة، فأخذ الأسى يعتصر قلوب المخلصين من أهالي قطر حين رأوا الجهل يكتسح كل ظاهرة من ظواهر حياتهم، لذلك فكروا في إنقاذ ما يمكن إنقاذه وتأمين القدر الضروري من التعليم لأبنائهم بإمكاناتهم المحدودة ومصادر دخلهم الضئيلة ، فبرز التعليم الشعبي في قطر الذي انحصر في الكتاتيب[٣]، كما وجدت الثقافة سبيلها إلى "المجالس الخاصة " التي كان يقيمها الأهالي، والتي طرحت فيها موضوعات ثقافية وأدبية أشاعت بعضا من الحراك الثقافي، حتى قيض لقطر أن تدخل مجال المدارس مع نهاية عهد الشيخ جاسم بن محمد و بداية عهد نجله الشيخ عبد الله بن جاسم، ونعني بها "المدرسة الاثرية" التي أنشئت عام ١٩١٣.

ويستفاد من الدراسات الحديثة المتعلقة بموضوعنا وأهمها دراسة الدكتورة موزة سلطان الجابر، أن ثقافة المجتمع القطري آنذاك، كانت جزءا من الثقافة العربية الإسلامية، وان كانت قد تأثرت بعوامل محلية لها طابع جغرافي واقتصادي بشكل خاص، فقد كانت لأهالي قطر علاقات اقتصادية واجتماعية مع شبه القارة الهندية ومع بلاد فارس على الساحل الشرقي للخليج العربي، فضلا عن بعض سواحل القارة الإفريقية، وبطبيعة الحال انعكست آثار هذه الصلات على طبيعة التراث القطري في بعض جوانبه المادية والفكرية وهو ما يبدو واضحاً على طرز المعمار والأثاث والأدوات المنزلية والفنون القطرية بشكل عام، مما جعلها مزيجا من الطابع المحلي والطابع الخارجي، حتى لقد دخلت مفردات من اللغتين الهندية والفارسية إلى اللهجات المحلية للأهالي وهو ما يتضح من تأثر تجار اللؤلؤ بمفردات اللغة الهندية، فإلى عهد قريب كانت العملة الرئيسية في هذه التجارة والمعاملات هي الروبية الهندية، كذلك تشير الدراسات التاريخية كذلك إلى تأثر التراث الفكري والفني بمؤثرات من الحضارات الأخرى

وهو ما يبدو في الموسيقى والأغاني والرقصات الشعبية الجماعية، التي يبدو تأثرها بالفنون الهندية والزنجية، نتيجة التبادل التجاري والعلاقات الاقتصادية.

ومن المهم أن نوضح أن الحياة الثقافية في قطر تأثرت تأثرا واضحا بالطبيعة والبيئة الجغرافية بشقيها الصحراوي والساحلي وما صاحبها من أنشطة اقتصادية عكست آثارها على حياة الناس وثقافتهم في المأكل والمشرب والملبس، كما ظهرت هذه الآثار في الفنون والآداب، الأمر الذي شكل ملامح معينة وواضحة للمجتمع القطري بشكل خاص بل و الخليجي بشكل عام، ويمكننا أن نلمس آثار ذلك في الغناء الذي تميزت به رحلات الغوص فكانت أغاني "النهامين" التي استهدفت بعث الحماسة في صفوف العاملين، حتى لقد صارت جزءا من طقوس رحلاته بالإضافة إلى تأثير الثقافة الدينية على الغناء الجماعي الذي كان يردده المشتغلون في الغوص، وما تضمنه من الحديث عن التوكل على الله والاعتماد عليه والدعاء بأن يكون الرزق وفيرا، وكانت الفنون تحمل مزيجا من الطابع الصحراوي أيضا وهو ما عبرت عنه أغاني السمر في ليالي الشتاء وبعد انتهاء موسم الغوص الشاق، فجاءت هذه الأغاني امتدادا لحياة البر والبحر، وقد يضاف إلى ما سبق من هذه المؤثرات ما تميزت به احتفالات الأهالي بالمناسبات الدينية والأفراح وحفلات الزواج والأعياد والتي عبرت عن نفسها في الرقصات الجماعية وأشهرها رقصة العرضة "الرزيف" .[٤]

والواقع أن التراث الشعبي الذي يعبر عن ثقافة الأهالي خير تعبير يعد مؤشراً مهماً ومصدراً أساسياً من مصادر التاريخ الاجتماعي أو تاريخ المجتمع القطري وثقافته بما تضمنه من اغانٍ وقصص وأشعار وحكم وأمثال، سواء كانت بحرية أو صحراوية، فكلها تعكس جوانب اجتماعية و ثقافية مختلفة من حياة القطريين خلال فترة دراستنا هذه، وإن امتدت بعض ملامحها إلى عصرنا هذا بوصفها تعبر عن ملامح وقسمات الشخصية القطرية وتعكس تطورها.

ولعل حياة البحر وأغاني الغوص تشكل جزءا مهما من ملامح حياة القطريين في ذلك الزمن الصعب، كما تمثل أغاني الميلاد والختان والزواج وأغاني العمل الجماعي والرعي، تعبيراً صادقاً عن ثقافة الناس في أفراحهم وأحزانهم وكذلك الشعر سواء كان باللغة العربية الفصحى أو باللغة المحلية "الشعر النبطي" وقد ارتبط ذلك كله بالمناسبات العامة للمجتمع، و مسايرتها لتطور حياة الأفراد فكانت تؤدي بذلك وظيفة اجتماعية سواء بوجهها الترفي أو

التشـــجيعي فتمثل أغاني البحر والســـمر البحري على ســـبيل المثال كالصـــوت واللعبونيات والمواويل الزهيرية وغيرها جزءاً أســـاســـياً من عمليات الغوص، مثلما كان "النهام" أو مغنى السفينة أحد رجالها المعدودين.

ويمكن الاســتزادة من هذه الثقافة بقراءة كتابي (الاغنية الشــعبية في قطر) و (القصــص الشــعبي في قطر) لمحمد طالب الدويك، وقد جمع فيهما جزءا كبيرا من هذا التراث وما أحاط به من نواحيه الفولكلورية والأدبية، فضـــلا عن ما أورده من نصـــوص الحكايات الشـــعبية تكشف الكثير عن صور الحياة الثقافية وأنماطها، حتى لو كانت للتسلية والترويح، لأنها تعبر عن قيم المجتمع القطري وثقافته وقيمه الأخلاقية ومن خلال هذه الأعمال نســـتطيع التعرف على تقاليد الزواج في المدن والبادية ومكانة المرأة وعلاقات الآباء والأبناء و نمط الحياة والحرف التي يمارسونها أو ينتجونها[٥] .

ويرتبط بالثقافة القطرية أيضـــا قراءتنا للأمثال الشـــعبية المتداولة، ســـواء كانت ســـلبية او ايجابية، فهي تعبر عن حِكم الناس وقيمهم الأخلاقية وفي كتاب (التحفة البهية في الآداب والعادات القطرية) رصـــد مؤلفه يوســـف عبد الرحمن الخليفي الكثير من العادات والتقاليد القطرية والثقافية المتعلقة بالزواج والأفراح والأعياد و تدارس القرآن الكريم والألعاب المتداولة والعملات والمقاييس والمكاييل والموازين، كما جمع فيه جزءا من الأمثال التي يتداولها الناس، وكلها تعبر عن ثقافة الناس في حياتهم اليومية و يرتبط بما ذكرناه أيضـــاً (قاموس الأمثال الشـــعبية في البيئ' القطرية) لمؤلفه محمد عبد الله المري الذي جمع مادته من المؤلفات والروايات الشـفوية لكبار السـن وفيه كشـفت الأمثال عن تراث ينم عن ثقافة تميزت بالحيوية والأصالة وحسن الأخلاق[٦].

****

لم تكن الثقافة في عهد الشيخ جاسم بن محمد استجابة لمعطيات البيئة الطبيعية و الأوضاع الاقتصادية وحدهما، وإنما كانت استجابة للانتماءإلى العالم العربي والإسلامي الذي تقع قطر في قلبه، ومن هنا اعتمدت على التعليم الديني واللغوي في الكتاتيب وما أعقبها من مجالات التعليم الاخرى. لقد كان الدين الإسلامي يعد أحد العناصر الثقافية ومن هنا كان يعد مصدرا للقيم الأخلاقية والاجتماعية فلعب دوراً اساسياً في تشكيل ملامح وسلوك الشخصية القطرية،

وفي تنشـــئة الأطفال اجتماعياً، فكان المجتمع يحرص على إلحاقهم بالكتاتيب منذ نعومة أظافرهم ثم يحرص على أدائهم الصلاة في أوقاتها بعد حفظ ما تيسر من القرآن الكريم[٧].

وقد أشرنا إلى أن الشيخ جاسم كان سلفي المنهج تأثر بالمذهب الحنبلي وعاصر مراحل من عهد الدولة السـعودية الثانية التي تأسـسـت على يد تركي بن عبد الله وابنه فيصـل الذي سـيطر على قطر عام ١٨٥١ فترة من الزمن، كما هو معروف، وكان مذهبها سـلفي حنبلي، ونتيجة لذلك استعان بفقهاء ومعلمين من نجد استقدمهم إلى قطر خاصة بعد أن انفرد بحكمها منذ عام ١٨٧٨، كما سوف نرى، وقد استطاع الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود استرداد الرياض عام ١٩٠٢ وسيطر بعد ذلك على كامل نجد، عدا حائل، وفي عام ١٩١٣ قبيل وفاة جاسـم بن محمد كان قد سـيطر على الأحسـاء والقطيف، وكانت بينه وبين جاسم علاقات تاريخية معروفة[٨].

لقد كان النشاط الاقتصـادي في قطر في بداية نشأة الإمارة وفي عهد الشيخ جاسم بسيطاً يعتمد على الغوص وبعض النشـاط التجاري البسـيط، ومن هنا كان التعليم هو الآخر بسـيطاً يتناســـب مع طبيعة المجتمع واحتياجاته، وكانت الكتاتيب تلبي حاجات المجتمع فتزوده بالمطاوعة وأئمة المساجد الذين كانوا يمارسون الفتوى والقضاء ولم تكن ثمة حاجة لتعليم أكثر من حفظ القرآن الكريم وتعلم القراءة والكتابة وبعض مبادئ الحســـاب، لكن مع تزايد النشـــاط الاقتصـادي نتيجة الاحتكاك بالعالم الخارجي، تطور نشـاط الكتاتيب على نحو أكبر وأفضـل، حتى لقد صـارت مع نهاية القرن التاسـع عشـر كما لو كانت مدارس صـغيرة، ولذلك اطلقت عليها بعض المصـادر، تجاوزاً، اسـم "مدارس" بينما لم يعرف تاريخ التعليم في قطر مدرسـة بالمعنى الحديث إلا في عام ١٩١٣ عندما أنشئت "المدرسة الأثرية" كما سنرى.

المهم أن هذه الكتاتيب كانت تقوم في منازل المطاوعة أو المسـاجد أو أروقة السـوق من خلال نشـاط أهلي يعتمد على دعم التجار الذين كانوا ينشـئون الكتاتيب وينفقون عليها لتعليم أبنائهم وأبناء جيرانهم، يمارس المطوع ، أو الملا، فيها عمله بوصفه وسيلة لكسب الرزق، كما كان الأثرياء يتبرعون بالكتب والكراســـات والألواح والأقلام والأحبار وغيرها من الأدوات المسـتخدمة في التعليم آنئذ، وقد يتعاون أكثر من تاجر لتحمل نفقات الكتاب كما كانت هناك كتاتيب يقيمها المعلمون بأنفسهم ويحصلون على نفقاتها من آباء التلاميذ عند الالتحاق و في الأعياد والمناسبات الدينية و عند ختم القرآن الكريم[٩].

ويزيدنا الدكتور كمال ناجي إيضاحاً عن طبيعة هذه الكتاتيب، أو المدارس، فيذكر أنها كانت أشبه بمدرسة من غرفة واحدة ومعلم واحد هو المطوع الذي كان غالبا ما يكون إمام المسجد وأن الدراسة فيها تتمثل في ثلاث موضوعات هي:

١. العلوم الشرعية: وأساسها حفظ القرآن الكريم وتلاوته وتجويده، والفقه ويتركز في فقه العبادات على مذهب ابن حنبل ثم السيرة النبوية المبسطة وبعض القصص الديني.
٢. اللغة العربية: وخاصة مبادئ القراءة والكتابة وبعض قواعد النحو المبسط مع بعض قصائد الشعر القديم.
٣. مبادئ الحساب وخاصة عمليات الأعداد الصحيحة وبعض الكسور.

ويساعد المطوع "عريفاً" يختار من أكثر الطلاب تحصيلاً وأقواهم شخصية، وكانت نفقات الكتاب تتمثل في راتب المطوع و إيجار قاعة الدروس وإن كان كثيراً ما يتخفف منهاالمطوع فيدرس للطلاب بالمسجد أو في احد المجالس فضلاً عن توفير أدوات الدراسة المعروفة.

وفي أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين اشتهرت في قطر ثلاثة كتاتيب او مدارس هي:

١. مدرسة الشيخان الرجباني وابن حمدان: وقد وفدا من نجد وافتتحا مدرستهما عام ١٩٠٠ لتعليم القرآن وأصول العبادات وبعض مبادئ اللغة العربية.
٢. مدرسة الشيخ محمد الجابر: وهو من أهالي قطر، وافتتحها عام ١٩٠٠ وكانت تدرس نفس المواد السابقة وإن أضاف إليها بعض النحو.
٣. مدرسة الشيخ حامد الأنصاري: وهو من أهالي قطر أيضاً، تأسست عام ١٩٠٣ لتعليم نفس المواد السابقة.

والى جانب هذه الكتاتيب الثلاثة وجدت مجموعة من الكتاتيب التي حاولت تطوير برامجها لتكون في مستوي الكتاتيب ، او المدارس، السابقة ومن أشهرها: كتاب الشيخ الدرهم وكتاب السنيدي، وكتاب الملاحسن مراد، والملا سالم والملا حبيب الخوري وكتاب برزخان في الدوحة، فضلا عن كتاتيب أخرى أنشئت في الوكرة والخور والذخيرة والظعاين والرويس.

وقد جذبت هذه الكتاتيب، او المدارس، الكثير من أبناء الإمارات المجاورة لقطر الذين كان يتحمل نفقات تعليمهم وإقامتهم في قطر بعض الأثرياء المحسنين من إماراتهم، وكان الشتاء هو الموسم الرسمي للدراسة، التي تقل في الصيف لاصطحاب الآباء لأبنائهم في رحلات

الغوص على اللؤلؤ، وكان للكتاب دوره في حضـانة ورعاية الأولاد حيث كانوا ملتزمين بالبقاء فيه طول فتره الصـباح فلا ينصـرفون إلى اللعب في البحر أوفي وسـط الطرق والبيوت.. وبالنسـبة للفتيات فقد كان تعليمهن موجهاً لحفظ القرآن منذ الطفولة حتى يسـاعدهن على أداء الصلوات، أما تعليمهن الكتابة فكان نادرا وذلك تمشياً مع نظرة المجتمع المتدنية للمرأة و"حتى يكتمل وعيها" ، وكانت الفتيات تتعلمن عند المطوعة التي كان كُتابها يختلط فيه البنات والبنين أما كتاب المطوع فكان قاصراً على البنين فقط[١٠].

وعندما انشـئت "المدرسـة الأثرية" منذ عام ١٩١٣ بدأت تسـتوعب من درسـوا في هذه الكتاتيب فأتاحت لتلاميذها فرصـة التخصـص والثقافة وقدمت لهم نوعاً من التعليم المتقدم القائم على البحث والدراسـة، وبذلك لم تعد مرحلة الكتاتيب مرحلة منتهية، الأمر الذي شـجع عددا كبيرا من المطاوعة على افتتاح كتاتيب منظمة لتهيئ تلاميذها إلى الدراسـة النظامية بالمدرسة الحديثة، ومع هذا التطور فإن الكتاتيب الأولى، ذات المعلم الواحد و قاعة الدروس الواحدة، ظلت قائمة تؤدي دورها العام في أنحاء قطر بشكلها التقليدي[١١].

****

لم تكن الكتاتيب هي وحدها هى أماكن تلقي العلم في عهد الشـيخ جاسـم بن محمد بن ثاني، بل كانت مجالس الشـيوخ و كبار القوم أيضـا أمكنه للعلم ونشـر الثقافة وإثراء الحياة الأدبية والفكرية، وقد انتشرت هذه الظاهرة على نطاق أوسع بين فئات المجتمع الأخرى ، فلا يكاد يخلو منزل قطري منها، يسـتقبل فيه رب المنزل ضـيوفه ، وغالبا ما يكون المجلس منفصـلا عن المنزل مهما كان متواضـعا، وكانت هذه المجالس تتسـع أو تضـيق حسـب إمكانيات وقدرات صـاحب المنزل، وعادة ما كان أصـحاب هذه المجالس يهتمون بتزويدها بالمؤلفات الدينية والأدبية، وبطبيعة الحال كانت المجالس الكبيرة يقيمها الوجهاء وعلية القوم وكان من أبرزها مجلس الشيخ جاسم بن محمد الحاكم، الذي كان شاعرا وأديبا... وكانت لهذه المجالس أوقات معلومة يؤمها فيها روادها وتدور عليهم المشـروبات، ولما كان وقت الفراغ كبيرا في هذه المجالس فقد اسـتغلها الوجهاء وكبار القوم في إقامة ندوات علمية وعرض مطالعات أدبية وثقافية، ولما كانت المكتبات الخاصـة قد انتشـرت فى البلاد، فقد حظيت هذه المجالس بمكتبات عامرة بالكتب التي كان يسـتفاد منها على فترات من اليوم، ففي الصـباح كانت تطالع الكتب الدينية، بينما كانت تطالع في فترة العصـر الكتب الثقافية العامة أو الكتب

السياسية والتاريخية أما فترة المساء فكانت تخصص لمطالعة كتب الأدب الشهيرة، كمؤلفات الأصـــبهاني والمبرد وابن عبد ربه وغيرها، وجرى العرف فيها على أن تخصـــص أوقات للمطالعة وأخرى للنقاش[١٢].

وعادة ما كانت هذه المجالس تستقبل علماء من عرب الساحل الفارسي بالخليج، وخاصة ممن تلقوا دراســـتهم الدينية في مدارس "لنجه" التي كان يمولها التجار العرب الســـنة، وكان عرب هذا الساحل يرتبطون اقتصادياً واجتماعياً بعائلاتهم وقبائلهم المقيمة في الجزيرة العربية، وكان هؤلاء العلماء، حسب روايات كبار السن، يفدون إلى بعض إمارات الساحل العماني للتعليم فيها، وبعضهم كانوا يفدون إلي قطر بعد انتهاء موسم الغوص فيستقبلهم القطريون بكل ترحاب، و ينزلون ضيوفاً على منازل كبار التجار ورؤساء القبائل والشيوخ، وعادة ما كان هؤلاء يطلبون من اولئك العلماء الوافدين أن يعلموا أولادهم وأبناء احيائهم تلاوة القرآن والعبادات، كما كانوا يلقون بعض الدروس في المســـاجد ويظل هؤلاء يقيمون في قطر طوال فترة الشتاء ثم يرحلون قبيل بداية موسم الغوص، بعد أن يتلقوا هدايا مالية من الأهالي والقبائل تعبيراً عن الشكر والعرفان.

وهكذا كانت هذه المجالس تقوم بدور الأندية في إنعاش الحياة الفكرية للمجتمع القطري، حيث كانت تشهد المساجلات الأدبية والمطارحات الشعرية وتشهد مناقشات في شؤون الفقه والأدب والتاريخ، يرتادها الفقهاء والأدباء والشعراء والمهتمين بشئون الثقافية بشكل عام، وكان الآباء يصطحبون أبناءهم، خاصة ممن أتموا حفظ القران الكريم وتعلموا القراءة والكتابة، إلى هذه المجالس ليستفيدوا من الاستماع إلى ما يدور فيها، ومن هنا صارت مجالا خصبا لتثقيف الأبناء... ومن أشهر هذه المجالس مجلس الشيخ جاسم بن محمد بن ثاني، وابنه الشيخ عبد الله ، ومجلس الشيخ فالح بن ناصر ومجلس محمد بن مانع ومجلس الخليفات، ومجلس خالد بن ناصر السويدي ومجلس سلطان المسلماني ومجلس أحمد بن عيسى ومجلس عبد الله بن على المسند بالخور[١٣].

****

وينبغي أن نؤكد أن مساجد قطر خلال عهد الشيخ جاسم لعبت دوراً تعليماً وتثقيفياً كبيراً فشكلت رافدا مهما للتعليم وثقافة العصر وقد بلغ عدد المساجد في تلك الفترة وفق الإحصائيات العثمانية عام ١٨٩٠ تســعة عشــر مســجدا في الدوحة وماجاورها و١٥ مســجدا في القرى

والبلدان الأخرى، وفي هذه المساجد كان أهالي قطر يتلقون معارفهم الدينية ويسمعون الدروس والمواعظ والخطب وقد كان الشيخ جاسم بن محمد نفسه يلقي دروسا وخطبا نافعة، وكان يتعهد الناس عقب صلاة الجمعة بدرس لطيف يحض فيه على طلب العلم والسعي إليه و يدعو إلى العمل بأحكام الدين والجهاد وأداء الزكاة وغير ذلك.

وبتشجيع من الشيخ جاسم، وفد الى قطر نفر من العلماء والدعاة والأدباء من البلدان المجاورة لاسيما من نجد ولعل من أشهر هؤلاء العلماء: الشيخ محمد بن عبد اللطيف ال الشيخ، والشيخ عبد العزيز بن صالح بن مرشد، والشيخ عبد الله بن محمد الخارجي، والشيخ عيسى بن عبد الله بن عكاس، والشاعر محمد بن عبد الله بن عثيمين، والأديب حسين بن علي بن نفيسه... وقد شغل بعضهم مناصب دينية في قطر، كالقضاء والإفتاء وإمامة المساجد وتدريس العلوم الشرعية والقيام بالدعوة والوعظ والتوجيه، وكان أهل قطر يفيدون من مجيء العلماء وزياراتهم فينهلون من علمهم ويدرسون عليهم ويطلعون على تآليفهم[١٤] .

وتشير الدراسات الحديثة إلى أن الدوحة في زمن الشيخ جاسم بن محمد ازدهرت كمركز علمي وثقافي في الخليج، فقد انتقل اليها بعض العلماء وطلبة العلم من العراق ومن نجد، التي كانت تمر آنذاك بمراحل من الاضطراب إثر الخلاف بين ورثة الإمام فيصل بن تركي، وأن عددا من العلماء النجديين استقروا في الدوحة تحت رعايته وقد سجل التاريخ أخبارهم، كالشيخ الدرهم والشيخ الخرجي والشاعر ابن عثيمين والشيخ عبد العزيز بن مانع.

وقد ترك الأخير رسائل علمية ومذكرات دون فيها نشاطه في قطر، كذلك وفد على جاسم عدد كبير من الأدباء والشعراء من شتى البلدان وراسلوه، وتركوا نصوصاً كثيرة ما بين تاريخ وتراجم ومدائح، ومن هؤلاء الذين كانت لهم به علاقة جيدة: الشيخ محمود شكري الألوسي وتلميذه محمد بهجت الأثري من العراق ، كما راسله الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ وهو من كبار علماء نجد، وقد عهد إليه الشيخ جاسم بالنظارة على بعض أوقافه. ومن العلماء والمثقفين الكبار في زمانه الذين زاروه أو مدحوه على البعد الشيخ سليمان بن سمحان، الذي كان لسان الحركة الاصلاحية في زمانه. وقد وفد إليه الشيخ علي سليمان اليوسف من العراق ومدحه، وكذلك الشاعر الكويتي الشهير خالد الفرج الذي كتب عنه نثراً وشعراً[١٥].

لقد كان للشيخ جاسم وجهاً فكرياً وثقافياً وأدبياً مشرقاً، فقد كان يبذل قصارى جهده في سبيل نشر العلم في بلاده واستقدام العلماء من أجل نشر المعرفة ودلالة على ذلك أنه اتبع

سـنة حميدة تتمثل في شـراء كميات كبيرة من الكتب المطبوعة النافعة ويوقفها في سـبيل الله، فتوزع على العلماء وطلبة العلم في قطر و البلدان المجاورة، ومن أشهر هذه الكتب التي وقفها كتاب "الإيمان" لشيخ الإسلام ابن تيمية، وكتاب "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح" له أيضا. وكتاب "منهاج التأسيس والتقديس في كشف شبهات داود بن جريس " للشيخ عبد اللطيف آل الشيخ و كتاب "مصباح الأنام" له أيضاً.

كذلك شارك شريكه التاجر مقبل بن عبد الرحمن الذكير في طباعة عدد من الكتب على نفقته الخاصـــة وأمر بوقفها وتوزيعها مجانا على العلماء وطلبة العلم ومن أهم الكتب التي نشرها الشيخ جاسم على نفقته الخاصـه كتاب "فتح المنان" لمحمود شكري الألوسي و كتاب "الدين الخالص" للشيخ محمد القنوجي وقد طبعا بالهند.

وفي عهد الشيخ جاسم بن محمد ارتحل عدد من أبناء قطر طلبا للعلم في كل من الأحساء ونجد والبحرين، نذكر منهم الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله الدرهم مؤلف كتاب "نزهة الأبصار بطرائف الأخبار والأسـفار" وهو أحد رجال الدين المعروفين في عصـره وكان جاسـم قد بعثه إلى الرياض بعد أن أنهي حفظ القرآن الكريم، وهناك تتلمذ على يد الشـــيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشـــيخ وقضـــى هناك عاما كاملا قبل عودته إلى الدوحة... ومن هؤلاء الذين ابتعثوا في عهده الشاعر محمد بن عبد الوهاب الفيحاني والشيخ إبراهيم الأنصاري وولده عبد الله، وعلى بن صـــالح الخليفي الذي رحل إلى الأحســاء وماجد الخليفي الذي ارتحل إلى نجد وإبراهيم ابن عبد الوهاب المطاوعة الذي ذهب إلى الأحساء لتلقي العلم، وكذلك جاسم عبد الله المسلماني وسالم فرج اللذان رحلا الى نجد.[١٦]

لقد كان للشيخ جاسم بن محمد اهتماماً خاصـاً بالأدباء والشعراء وكان عاشقاً للشعر وله ديوان شهير في الشعر النبطي (الشعبي)، كان أول ديوان طبع من هذا الشعر، حيث طبع في الهند أول مرة عام ١٩١٠ ، وقد تجاوز في هذا الديوان الموضـــوعات التقليدية في الفخر والمديح والغزل، ليكتب في التوحيد وحركته التي دعا إليها الشـيخ محمد بن عبد الوهاب، كما يصور في قصائده واقع الحياة التي عاصرها والأحداث التاريخية التي شارك فيها أو عاينها، خاصـة وأن حياته شـهدت وقوع معظم مشـيخات الخليج تحت السـيطرة البريطانية، ومن هنا صـور رؤاه ومواقفه السـياسـية في قصـائده التي تدور حول المعارك التي خاضـها ضـد خصومه[١٧].

وبالرغم من أن هذا الشعر النبطي يعتمد بشكل أساسي على السماع، ولا يلقى الاهتمام الجدير به من المتعلمين والكتاب، لأنه غير مكتوب باللغة الفصحى، إلا أن شعر جاسم اكتسب أهمية كبرى لأن ديوانه حفظ جزءاً من تاريخ قطر، حيث سجل فيه الأحداث التي مرت بها وموقفه منها ، كما سجل ملحمة حياته الشخصية وآرائه وما يؤمن به من قيم ومبادئ، فضلاً عن توثيق أهم هذه الأحداث التي شارك فيها.. والمتصفح لديوانه سيجد أنه يتضمن نصوصاً من القرآن والأحاديث وأنه يجيد اللغة العربية ويحفظ الكثير عن شعرائها القدامى، ففي نصوصه بوارق من ألفاظ القرآن وفصاحة وبلاغة العرب تطل من قصائده العامية في زمن كانت الفصحى فيه تعاني من ضآلة الاهتمام وغياب الكتب والمعلمين والمدارس المؤثرة، وقد كشف شعره كذلك عن عمق ثقافته الدينية ومعرفته بأصول العقيدة وقضاياها، الأمر الذي يوضح أنه كان راسخاً في العلوم الشرعية وهو ما لاحظه معاصروه ومؤرخو الأدب[١٨].

ويرصد لنا الدكتور محمد جابر الأنصاري أهمية الشعر النبطي في الجزيرة العربية والخليج خلال هذه الفترة فيذكر أنه كان وسيلة التعبير الوحيدة شعرياً وفكرياً قبل إنشاء التعليم العصري، فكان الشاعر النبطي هو خطيب قبيلته وحكيمها وصحفيها بمقياس ذلك الزمن، ويضيف: ولدينا في تاريخ قطر والخليج رجل نادر المثال هو الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني جمع بين هموم القيادة والسياسة وتأسيس الدولة، وبين هموم الشاعر ونظمه، والمثير للدهشة أنه لم يحدث تعارض بين السياسة والشعر في شخصيته، بل حدث بينهما تفاعل وإخصاب، فغذت الأحداث السياسية عاطفة الشاعر وأججتها، وقام الشعر بدوره في خدمة القضية السياسية والتعبير عنها والدفاع عن حياضها .

لقد ولد جاسم في كنف أسرة بدأت تتربع على السلطة، وتلقى علومه على أيدي رجال الدين وتفقه حتى وصل إلى مرتبة القضاء والحكم بين الناس، وجالس الشعراء وسجل أحداث حياته شعراً، ولعل ذلك كان سبباً في وصف الرحالة (بلجريف) له بأنه "أعلم جماعته" .. لقد جمع هذا الرجل بين دهاء السياسة وحرارة الشعر وكانت له نظرات وخطط عربية واسعة المدى تكشف عن طموح سياسي كبير تصدت لها القوى الاستعمارية[١٩].

لقد تمثلت حركة المقاومة والصمود ضد الاستعمار البريطاني وضد المؤثرات والأوضاع التى خلقها التأثير الأوروبي في إفساد القيم والأخلاق العربية.. ومن صميم هذه المقاومة انبعث الشعر والأدب في اتجاهين متكاملين:

اتجاه ديني يدافع عن حركة التوحيد ومبادئها ويرد على خصومها شعراً ونثراً بالرسائل والكتب، **واتجاه سياسي أدبي يوازيه** ويمازجه في نقد الأوضاع الفاسدة التي خلقها، مستخدماً الشعر النبطي في الأغلب لأنه كان بمثابة صحافة ذلك الزمان وأجهزته الإعلامية في تعبئة الرأي العام والتنديد بالمخالفين والاشادة بالمواقف والانتصارات، ولقد سارت أبيات الشيخ جاسم كأمثال جارية على ألسنة الناس في قطر والخليج وكان لها ما كان للشعر العربي القديم من أثر في حياة العرب[٢٠].

****

وقد عرفت قطر عدداً من الأدباء والشعراء الذين قدموا إسهامات ثقافية مشهودة، و يمكننا أن نرصد أسماء حفظ التاريخ ذكرها عن فترة حكم الشيخ جاسم بن محمد، واستمرت عطاءات بعضهم إلى ما بعد عصره خلال العقود الأولى من القرن العشرين و **أبرز هذه الأسماء:**

- **محمد بن عثيمين** الشاعر الفارس، النجدي الأصل الذي عاش ردحاً من الزمن في قطر كان فيه أخاً لقادتها ورجالاتها واشترك في بعض حروبها كواحد من أبنائها، وله ديوان شعر كبير صور فيه طبيعة الحياة في قطر وأحداثها ومعالمها في فترة التأسيس وله قصيدة نظمها في مدح مؤسس قطر عام ١٩٠٧ .
- **عبد الجليل الطبطبائي** الذي ولد في الزبارة ونشأ فيها و تزوج امرأة منها، وله ديوان شعر مطبوع، كما أنه أسهم في مكاتبات الحكام ومراسلتهم في زمنه، وله رسائل من النثر الفني وقد عاش أيضا في الكويت والبحرين.
- **أحمد بن مشرف التميمي** الذي ولد في الزبارة ايضاً وكان عالماً محدثاً وقد تولى منصباً قضائياً بالأحساء زمن الإمام فيصل بن تركي، وله مصنفات في علم الأصول، وقد توفي عام ١٩٤٢ بعد أن حاز شهرة جيدة في قطر والأحساء.

- **محمد بن حسن المرزوقي** وكان كاتباً وشاعراً ،ويسمى أيضا القطري والأنصاري، وله قصائد جيدة في الرد على النبهاني والجهمية و في الدفاع عن عقيدة التوحيد وله معارك أدبية شهيرة مع أهل عصره.
- **عبد الرحمن بن عبد الله الدرهم** وهو أبرز علماء الدين المرموقين في عهد الشيخ جاسم، كما كان أحد مؤرخي الأدب وصاحب الكتاب (نزهة الأبصار بطرائف الأخبار والأشعار) وكان كتاباً موسوعياً على نهج كتابي الأغاني للأصبهاني والعقد الفريد لابن عبد ربه، وقد توفي عام ١٩٤٢ بعد أن ترك ثروة شعرية وأدبية خلدت ذكره.[٢١]
- **ماجد بن صالح الخليفي** (١٨٧٣- ١٩٠٧) الذي كان ينظم بالفصحى والعامية وكان خطاطاً يجيد فن الكتابة العربية، كما ترك ديواناً منشور بعد أن توفي شاباً.
- **عبد الرحمن بن صالح الخليفي** (١٨٩٠- ١٩٤٣) وهو من بيت عريق من بيوت قطر وصاحب مصنف في الأدب عنوانه (بستان الأكياس والأفراد من الناس) الذي ضم مختارات نثرية وشعرية من روائع التراث، له طابع موسوعي كأعمال الأصبهاني وابن عبد ربه
- وقد قام الأستاذ **يوسف بن عبد الرحمن الخليفي** ابن هذا الشاعر بنشر كتاب والده (بستان الأكياس..)، كما أنه شاعر مجيد للفصحى وهو من أوائل رجال التعليم في قطر، وقد صنف كتاباً هو الآخر عنوانه (التحفة البهية في الآداب والعادات القطرية) تضمن قصائده وتراجم لوالده وعمه **ماجد الخليفي** كما قدم فيه شواهد من تراث قطر الشعبي والأدبي وماضي حضارة الغوص في قطر والخليج.[٢٢]

وقد شهدت فترة أواخر حكم الشيخ جاسم ولادة أول كاتب قطري نشر مقالاته في المجلات الدورية العربية، وهو الأديب **صالح بن سليمان المانع** الذي اتصل بالشيخ عبد الله بن جاسم منذ ولايته على الدوحة، في وجود والده جاسم حاكماً على قطر، ثم شغل منصب أمين أسراره طيلة عهده وقد استطاع هذا الأديب الموهوب أن ينشر، وهو في مقتبل عمره، مقالاً في مجلة (العمران) المصرية عام ١٩٠٩ تحدث فيه عن قطر وحاكمها، وقد اتبع هذا المقال بمقالات أخرى نشرها في مجلة (الهلال) و(صوت البحرين) وغيرها من المجلات العربية، وخلال هذه الفترة أيضا ألف الشيخ الأديب **محمد بن حسن المرزوقي** كتابه "أرجح المقاصد

في أربح الفوائد" ونشره في الهند عام ١٩١٢ وهو يعد ثاني قطري يطبع كتاباً بعد ديوان الشيخ جاسم بن محمدبن ثاني.

وينبغي أن نلاحظ أن الكتب والمجلات والصحف كانت تجلب إلى قطر خلال هذه الفترة من بعض البلدان العربية التي ظهرت فيها حركة الطباعة كالعراق والشام ومصر أو من إيران والهند، وكانت أهم المجلات العربية التي تصل إلى قطر حينذاك هي مجلات المنار والهلال والعمران ومجلة لغة العرب وغيرها[٢٣].

****

وبالعودة إلى التعليم والمدارس في السنوات الأولى من القرن العشرين سنلاحظ أن الكتاتيب الصغيرة ذات الفصل الواحد تطورت إلى كتاتيب كبيرة سميت مدارس ، كما مر بنا، وأن هذه الأخيرة هي التي مهدت وغذت أول مدرسة حديثة في قطر وهي (المدرسة الأثرية) التي أقيمت في العام الأخير من حياة جاسم وفي بداية عهد ولده الشيخ عبد الله بن جاسم، عندما سنحت الظروف لافتتاحها، فقد تطورت حركة التاريخ وازداد التواصل ببلاد العالم التي سبقت في مجال التعليم والثقافة وازداد احتكاك القطريين بالعالم الخارجي واتسعت فئات التجار وتعقدت المصالح وألحت الحاجة إلى إنشاء مدارس من الطراز الحديث.

وقدارتبطت نشأة (المدرسة الأثرية) بتولي الشيخ عبد الله بن جاسم الحكم في قطر عقب وفاة والده الشيخ جاسم عام (١٩١٣م – ١٣٣٢هـ) فقد رأى الحاكم الجديد أن الكتاتيب لم تعد ملائمة للقيام بواجبات التطور وحاجة المجتمع، وأن عملها لا يكاد يتعدى محو الأمية إلا في حالات نادرة، ولذلك استدعى الشيخ محمد بن مانع الذي كان يعمل قاضياً في البحرين وأوكل اليه افتتاح مدرسة بالدوحة تعمل على رفع مستوى التعليم في البلاد، فاستجاب الشيخ ووصل الى الدوحة وأخذ في تنظيم المدرسة التي كانت تعد مدرسة نموذجية في ذلك الوقت وأطلق عليها اسم (المدرسة الأثرية) التي استمرت تعمل خلال الفترة من ١٩١٣ إلى عام ١٩٣٨

وقد بدأ الشيخ التدريس بها في حجره بقصر الشيخ عبد الله بن جاسم ثم انتقل إلى منزل لآل الباكر ، و لم يلبث أن اختار مكاناً خاصاً للمدرسة في (الجسرة) قرب مسجد محمد بن عبد اللطيف المانع وكان يدرس فيها صباحاً، وفي المساء يلقي دروسه في مسجد المانع، وقد التحق بالمدرسة عدد كبير من أبناء قطر الذين سمحت لهم ظروفهم بالتفرغ لطلب العلم كان منهم: الشيخ فالح بن ناصر والشيخ ناصر بن خالد ومحمد بن عبد الله الجابري الذي عمل

قاضـياً بعد الشـيخ محمد بن مانع والحاج قاسـم الدرويش والشـيخ عبد الله الأنصـاري وغيرهم كثيرون ممن كان لهم أثرهم في نهضة قطر.

وقد أرسل الشيخ محمد بن مانع رسائل إلى شيوخ ووجهاء الخليج العربي يخبرهم فيها بافتتاح المدرسـة والمواد التي تدرس فيها فاسـتقبلت المدرسـة عدد من أبناء الإمارات المجاورة كما وصـل إليها طلاب من نجد والكويت وإيران، وقد جذبت إليها من نجد القاضـي الجليل الشـيخ عبد الله بن زيد آل محمود الذي تولى رئاسـة المحاكم الشـرعية في قطر. وكان الشـيخ محمد بن مانع يعني بتدريب تلامذته تدريباً عملياً وذلك بتكليفهم بالوعظ في المساجد وفي الأسواق وكذلك بالتعليم في المساجد والمجالس ومضارب البدو.

وشملت مواد الدراسة في المدرسة الأثرية مجالين أساسيين هما:

- **العلوم الشرعية:** وتشمل علوم القرآن والتوحيد والفقه وعلوم الحديث .
- **اللغة العربية:** وتشمل فقه اللغة وقواعد النحو والصرف والبلاغة والأدب نثره وشعره.

وقد قسم الشيخ محمد بن مانع الطلاب إلى حلقات دراسية متأثرا بالأسلوب السائد في الأزهر الذي درس هو فيه، واهتم بتعميق روح البحث والتحصـيل الذاتي لطلابه ولم يهمل التدريب العملي فكان يقيم هذا للإفتاء، وينصـب ذاك للمناقشـة الأدبية، ويوجه الثالث للوعظ في مكان عام مرسخاً روح المنفعة الاجتماعية من العلم و ربط التعليم بالمجتمع.

كان لنظام البحث الذي اتبعه الشيخ أثره، ليس فقط في تنمية مكتبة المدرسة الأثرية، بل وفي نشوء المكتبات الخاصـة لدى تلاميذه ومن نالوا قسطاً كافياً من التعليم من أهالي البلاد، أما بالنسبة لمكتبة المدرسة الاثرية فقد تبارى أهل الجود والكرم في شراء الكتب والمخطوطات من مختلف البلاد العربية لإمداد المدرسـة بها وكان يزين كل كتاب بعبارة: "هبة من الفقير إليه تعالى..." ولم يمض وقت طويل حتى أصـبحت المدرسة تضـم أمهات الكتب الإسـلامية بقدر ما تسـمح به الإمكانات المالية والاقتصـادية لأهل البلاد، وقد كان قدر كبير من هذه الكتب نواة لدار الكتب القطرية التي تأسست فيما بعد[٢٤].

لم يكن هناك عدد معين من السنوات لكي يكمل الطالب دراسته فقد كان شعور الطالب أنه حصـل على ما جاء من أجله هو الفيصـل في إنهاء دراسـته أما إذا شـعر بأنه لايزال محتاجاً إلى مواصـلة التعليم، فكان يمكنه الذهاب إلى بلاد الحجاز أو العراق أو مصـر أو سـوريا، حيث يكون حراً في دراسـة ما يريد.. وكان الشـيخ المانع عادة ما ينصـح خريجي

مدرسته ويحترم رغباتهم، كما كان يزود الخريج بشهادة تنص على أن الخريج الذي كان يدعي (طالب علم) قد أنهى دراسته في المدرسة الأثرية[٢٥].

وقد تخرج من هذه المدرسة عدد كبيرليس فقط من علماء قطر ومثقفيها وإنما من منطقة الخليج العربي.. ومن أبرزمن تخرجوا منها : الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود، والشيخ عبد الله بن تركي السبيعي، والشيخ محمد بن جابر، والشيخ ناصر بن خالد آل ثاني، والشيخ فالح بن ناصر آل ثاني، والشيخ قاسم الدرويش فخرو، والشيخ عبد الله بن ابراهيم الانصاري، والشاعر محمد بن عثيمين المعروف في منطقة الخليج، والشيخ محمد بن سعيد آل غباش من رأس الخيمة.

وكانت معظم مالية هذه المدرسة على نفقة حاكم قطر الشيخ عبد الله بن جاسم آل ثاني وكذلك من المحسنين الكبيرين: خالد بن محمد المانع وخليل بن إبراهيم الباكر. وبعد عامين من افتتاح المدرسة تولى الشيخ محمد بن مانع القضاء في قطر فنقل المدرسة إلى دار القضاء في مبنى المحاكم الشرعية بالدوحة آنذاك، وكان يقوم بالتدريس فيها من شروق الشمس إلى الحادية عشر صباحا، ثم يسمح للمتقاضين بالدخول، ويبدأ في ممارسة القضاء بينهم، بينما تلاميذه حاضرون يستمعون إلى إجراءات التقاضي ويسجلون ما يعن لهم من ملاحظات حتى إذا انتهى الشيخ من المتقاضين عند صلاة الظهر، انتقل بالتلاميذ إلى المسجد المجاور وأمّ المصلين ثم جلس للإفتاء وتلاميذه حوله يستمعون ويسجلون، وفي صباح اليوم التالي يسألونه عما ثقل عليهم فهمه.

وهكذا لم تكن المدرسة الأثرية لتعليم المبتدئين القراءة والكتابة وإنما كانت لتثقيف المتعلمين وإكسابهم التخصصات العلمية المشار إليها.. لقد كان الشيخ محمد بن مانع العمود الفقري لهذه المدرسة التي أدت دوراً فعالاً وايجابياً في منطقة الخليج العربي، ولذلك عندما انتقل الشيخ إلى مكة عام ١٩٣٨ أغلقت المدرسة أبوابها بعد ربع قرن من تأسيسها، أدت خلاله دورها وواجبها العلمي والثقافي في قطر وإن بقيت روحها سارية في خريجيها الذين تولوا الحركة العلمية والثقافية فيما بعد.

ويذكر الدارسون السعوديون أنهم وقفوا على عدد غير قليل منها دوّن على أغلفتها وقفيته بخطوط عدد من العلماء والأعيان من نجد، وقد كتب عنه المؤرخ الأديب سليمان بن صالح الدخيل في كتابه "تحفة الألباء في تاريخ الأحساء" إنه كان على جانب كبير من التقوى

ومخافة الله ، وبالجملة فهو من النابغين في الأمة العربية العاملين لسعادة الدين والوطن وقد وصفه وصفاً بليغاً موجزاً بقوله: "هو الأمير في هذه البلاد وهو الخطيب يوم الجمعة وهو القاضي والمفتي والحاكم، ومن صفاته أنه اذا خطب أذهل السامعين وجلب قلوبهم إليه، وإذا أعطى فعطاياه جزيلة، وبالجملة فهو من أركان العربية وأنصارها ومن رجال الإسلام وفحوله وهو مسموع الكلمة في العرب مهاب عند الرؤساء والأمراء نافذ القول دأبه الاصلاح ولم يسع في أمر إلا وقد أتمه الله على يديه " [٢٦].

وكثيراً ما نقل عنه المؤرخون، ومنهم أمين الريحاني، الوصف الذي وصفه به محمد بن عبد الله عبد المحسن الأنصاري في كتابه "تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء القديم والجديد" وكان وصفاً جامعاً لمقولات الكثير ممن رأوا جاسم و عاصروه وتحدثوا عن فضائله، فذكر: "وله فضل وعلم ومعرفة بالدين وله مبرات كثيرة على المسلمين يصرف أكثر وارداته على الجوامع والخطباء والأئمة والمدرسين فكان أميرا للبلاد وخطيبها وقاضيها وفقيهها والمحسن الأكبر فيها" [٢٧].

خاتمة :

لقد شهد عصر الشيخ جاسم بن محمد بن ثاني ألواناً مختلفة من العلم والثقافة ارتبطت بالتعليم والثقافة السائدين في الخليج والجزيرة العربية في زمنه، فلم ينعزل بقطر عنها، لأنه كان متعلماً ومثقفاً بتلك الثقافة، وكان شاعراً وأديباً محباً للعلم و أهله و قام بدور مهم في تنشيط الحياة الثقافية والفكرية، ليس في قطر وحدها ، وإنما في عدد من البلاد الإسلامية وخاصة في نجد وذلك من خلال تشجيعه للعلماء وطلبة العلم وتخصيص أوقاف تنفق مواردها عليهم، وتوفير الكتب والمؤلفات لهم وتزويدهم بنوادر كتب التراث التي كانت تطبع في الهند وفي غيرها .

وقد عرفت قطر في هذاالعصر نوعا من التعليم الذي كانت تحتاجه طبيعة المجتمع القطري آنذاك، يستند إلى العلوم الشرعية واللغوية ، يكتفى فيه بالكتاتيب في صورتها البسيطة، التي مالبثت أن تطورت وصارت كبيرة في العقود الأخيرة من حكمه ، ومهدت السبيل لتأسيس أول مدرسة حديثة ، وهي المدرسة الأثرية، عقب وفاته مباشرة ..كما لعبت المساجد ومجالس العلم والسمر الخاصة ، و المكتبات التي أنشئت فيها، دورا مهما في إتاحة الفرص لتداول الثقافة من خلال المؤلفات في علوم الين واللغة والأدب والتاريخ والتراث ، مما أسس لخلق جيل من الكتاب و الشعراء والأدباءالذين حملوا أمانة التعليم والثقافة في قطر فيمابعد..

****

الهوامش والمصادر

١ موزه سلطان الجابر: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في قطر من عام ١٩٠٠- ١٩٣٠، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب جامعة عين شمس، القاهرة ١٩٨٦،ص ٢٦١- ٢٦٥.
٢ محمد محمود الدروبي: الشيخ عبد الله بن جاسم آل ثاني ١٢٨٨- ١٣٧٦ه/ ١٨٧١ -١٩٥٧م ، حياته وعهده وأعماله، الجزء الاول، مركز شباب برزان، الطبعة الاولى، قطر ٢٠١٤،ص ٨٤- ٨٥.
٣ كمال ناجي: تاريخ التعليم الشعبي في قطر، منذ نهاية القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين، بحث منشور بكتاب (مؤتمر دراسات شرق الجزيرة العربية، لجنة تدوين تاريخ قطر)، الجزء الثاني، الدوحة مارس ١٩٨٦، ص ٥٠٧- ٥٠٩.
٤ موزه سلطان الجابر، المرجع السابق، ص ٢٧١- ٢٧٤.
٥ أحمد زكريا الشلق وآخران: تطور قطر الحديث والمعاصر، فصول من التطور السياسي والاجتماعي والاقتصادي، الطبعة السادسة، الدوحة ٢٠١٤، ص ٤٤- ٤٦.
٦ راجع المؤلفات التالية عن التراث الثقافي:
محمد طالب الدويك: الأغنية الشعبية في قطر، الدوحة ١٩٧٥، وكتابه : القصص الشعبي في قطر.
يوسف عبد الرحمن الخليفي: التحفة البهية في الآداب والعادات القطرية، الطبعة الأولى بالدوحه ١٩٨٠، والطبعة الجديدة تحقيق ودراسة الدكتورة لمريم النعيمي، الدوحة ٢٠١٠.
محمد عبد الله المري: الأمثال الشعبية في ةالقطرية، الدوحة ١٩٨٥.
مصطفى مبارك: دليل الباحث القطري لجامع الفولكلور، الدوحة ١٩٨٥.
٧ محمد احمد غنيم: التحضر في المجتمع القطري، الإسكندرية ١٩٨٣، ص ٨٠ وما بعدها.
٨ حول هذه التطورات راجع دراسة خالد الوزان، وعبد الله البسيمي " القيم الدينية عندالشيخ جاسم بن محمد بن ثاني من خلال علاقته بنجد وعلمائها" منشورة بكتاب أبحاث ندوة جاسم بن محمد بن ثاني، الدوحة ديسمبر ٢٠٠٨، ص ٦٠ وما بعدها.
٩ موزة الجابر، المرجع السابق، ص ٢٧٥- ٢٧٧.
١٠ موزة الجابر، المرجع السابق، ص ٢٧٧- ٢٨٣.
١١ كمال ناجي، المرجع السابق، ص ٥٠٩- ٥١٤.
١٢ كمال ناجي، المرجع السابق، ص ٥٢٥- ٥٢٧.
١٣ موزة الجابر، المرجع السابق، ص ٢٨٩- ٢٩٢،وراجع كذلك كتاب محمد مرسي عبد الله: دوله الامارات العربية وجيرانها، دار القلم، الكويت ١٩٨١، ص ٣٠٨.
١٤ محمد محمود الدروبي: المرجع السابق، ص ٨٦- ٨٧، وكذلك دراسة خالد الوزان وعبد الله البسيمي: القيم الدينية عند الشيخ جاسم بن محمد بن ثاني من خلال علاقته بنجد وعلمائها، منشورة بكتاب أبحاث ندوة جاسم بن محمد بن ثاني، ص ٧٦.
١٥ محمد الأحمري: ثقافه الشيخ جاسم بن محمد من شعره ومكاتباته، دراسة بكتاب أبحاث ندوة جاسم بن محمد بن ثاني، ص ١٥٢- ١٦٩.
١٦ موزة الجابر، المرجع السابق، ص ٢٨٨ ، وقد قدمت هذه المعلومات من لقاءاتها بكبار السن في قطر ونشرت أحاديثهم بملاحق الدراسة.
١٧ موزة الجابر، المرجع السابق،ص ٢٩٤- ٢٩٥.
١٨ محمد الأحمري: ثقافه الشيخ جاسم بن محمد من شعره ومكاتباته ، المرجع السابق، ص ١٥٢- ١٦٩
١٩ محمد جابر الأنصاري: تراث قطر وثقافتها المعاصرة، دراسة في تراث قطر الأدبي ونهضتها الادبية والثقافية والفنية الحديثة، وزارة الإعلام في قطر ١٩٨٠،ص ٨-٩ ، وقدم المؤلف دراسة عن تأثير حركة التوحيد في شعره ومقتبسات من قصائده، ص ١٠-١٥.
٢٠ محمد جابر الأنصاري: المرجع السابق،ص ٢٠- ٢١.
٢١ لمزيد من التفاصيل حول هؤلاء الأدباء والشعراء راجع، موزة الجابر: المرجع السابق، ٢٩٥- ٢٩٨ وكذلك محمد رجب الأنصاري: المرجع السابق،ص ٢٢- ٢٤.
٢٢ وعن عبد الرحمن بن صالح الخليفي وابنه يوسف عبد الرحمن الخليفي راجع الطبعة الجديدة من كتاب يوسف عبد الرحمن الخليفي (التحفة البهية) في الطبعة الجديدة تحقيق ودراسة الدكتورة مريم النعيمي، وزارة الثقافة والفنون والتراث، الدوحة، قطر ٢٠١٠ .
٢٣ محمد محمود الدروبي، المرجع السابق،ص ٩٤- ٩٥.

٢٤ كمال ناجي ، المرجع السابق،ص ٥١٣- ٥٢٢.
٢٥ يوسف العبدالله: تاريخ التعليم في الخليج العربي ١٩١٣- ١٩٧١، الدوحة ٢٠٠٣،ص ٣٠٨- ٣٠٩.
٢٦ خالد الوزان وعبد الله البسيمي، المرجع السابق، ص ٨٦- ٩٠ ، وقد صور الكاتبان في دراستهما صورا لبعض أغلفة الكتب التي دونت عليها عبارات تفيد بأنها من وقف الشيخ جاسم بن محمد بن ثاني.
٢٧ محمد الأحمري: ثقافة الشيخ جاسم بن محمد من شعره ومكاتباته ، المرجع السابق، ص ١٥٢- ١٦٩.

****